الحلقة الثانية

أبناء يعقوب يلقون أخاهم يوسف فى الجب

يعـــودون فـــى المساء إلى أبيهم يبكون

يبيعونه للتجـــار عـــلى أنه عـــبد آبـــق

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الثانية

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ .

أشعار الحلقة الثانية

هـا نحـن لا زلنـا مع الـصديـقِ يوسـفَ ذاهبـين ١
فـى قـصـةٍ أحـداثُهـا ظلـت حـديـثَ الـعـالـمين ٢
إخـوانُ يـوسـفَ قـرروا أن يـأخـذوه مُصَمِّمـين ٣
قـد قرروا أن يـأخذوه وأضـمَروا الـفعـلَ المشـين ٤
الـشـيـخُ وافقَهـم ، لِتـكـمُلَ قـصـةُ المتـآمـريـن ٥
ذهـبوا بـه ، كانـوا لفـعلِ الـشر حـتمـا عازمـين ٦
قـد قـرروا إلـقـاءه فـى الجُب لـيـسـوا هـازلـين ٧
لـكنْ إلـهُ الـعرشِ دومـاً يـنصـر المسـتـضـعفـين ٨
أوحـى لـيـوسـف أنـه ناجٍ فـصـبـراً فـى يـقـين ٩
ولسوف يُنصر فى الحياةِ ، وسـوف يعلو الحاقدين ١٠
بل سـوف يخـبرهـم بهذا ، ولـيكـونوا آسـفين ١١
إخوانُ يـوسفَ إنـهم كانـوا ليوسـفَ حاسـدين ١٢
الحـقدُ أعـمـاهم ، لـقـد صاروا جُفـاةً قـاتلـين ١٣
قد جفّ فـيهم كلُّ عَطْفٍ ، أصبـحوا متحـجرين ١٤
لم يـرحمـوه وكان يـبكيـهم فـكانـوا جاحـدين ١٥
فى الجُب أصـبح لا أنيسَ ولا جـليسَ ولا مـعين ١٦
عنـد المساءِ جـميعُهـم عادوا إلى الـشيخِ الحـزين ١٧
عادوا إلـيه بغـيرِ يوسـفَ ، قد غـدوا متحـازنين ١٨
قـالوا : فـعذراً يـا أبانـا ، لـم نكـن متـوقعـين ١٩
فلـقد ذهـبنـا للـتسابـق ، حيـث نلـهو لاعـبين ٢٠
وهـناك يـوسفُ ظـلَّ عـند مـتـاعنا كـالحارسـين ٢١
الـلهـو أنـسانـا وقـد صرنـا جـمـيعـاً غـافلـين ٢٢
الـذئبُ مـزّقـه وكان مـن الـذئابِ الـكـاسريـن ٢٣
تـالله إنك لـم تـكنْ مـن قولـنـا فى المـوقنـين ٢٤
فلـقد تحقـق ما ظنـنتَ بحكـمةِ الشيخِ الفـطين ٢٥
يا حـسرةً قـد ضاعَ يـوسفُ فـى عِداد الراحـلين ٢٦

وقميصُه قد لوثوه دماً كذوباً عامدين ٢٧
قالوا : فهاك قميصُه بدمائه كي تستبين ٢٨
أخذ القميص الشيخُ ينظُرُه بعين الفاهمين ٢٩
عرفَ الحقيقَة أنهم ليسوا جميعاً صادقين ٣٠
من ثَم قال لهم ، وكان بلهجة المتهكمين ٣١
الذئبُ آكلُ يوسفٍ ، ما كان في المتوحشين ٣٢
ترك القميص بغير تمزيق يخاف اللائمين ٣٣
الذئب خير من وحوش في ثياب الآدمين ٣٤
أنتم تواطأتم على فعلِ الجريمةِ مجمعين ٣٥
تالله قد صرتم بهذا في عِداد الغادرين ٣٦
ولسوف أصبرُ للمصابِ ، وبالإله سأستعين ٣٧
في الجب يوسفُ صار يبكي ، لا أنيسَ ولا معين ٣٨
لكنَّ ربَّ العرشِ أيده بسجبريلَ الأمين ٣٩
فوراً أتاه وقال : لا تيأسْ ، وكن في الصابرين ٤٠
اصبرّ فإنك عند ربك في عداد المرسلين ٤١
ولسوف تبلغ كل مجد ، في صفوف الخالدين ٤٢
جاء القوافل عند ذاك البئر صاروا نازلين ٤٣
قد أرسلوا وُرّادَهم للبئر كانوا ظامئين ٤٤
في الجب أدْلَوا دلوهم للماء كانوا طالبين ٤٥
الدلْو أمْسكَه الغلامُ ، وقال يغلبُه الأنين ٤٦
فلتخرجوني من ظلام الجب ، كونوا محسنين ٤٧
قد أخرجوه ، وقد غدَوا من شأنه متعجبين ٤٨
فوراً تنادوا بالبشائرِ في القوافلِ معلنين ٤٩
جاء الجميعُ لينظروه ، وقد غدوا متسائلين ٥٠
من أنتَ ؟! قال: فلست أدري لا تكونوا مكثرين ٥١
إخوانه كانوا على بُعد جميعاً راصدين ٥٢
جاءوا إلى الوُراد قالوا : إنّه عبد مهين ٥٣
قالوا : فإنا نشتريه ، إذا أردتم بائعين ٥٤
باعوه بيعَ العبدِ ، قد كانوا جميعاً زاهدين ٥٥

عجلة الأقدار لا تتأثر بأحزان أناس أو أفراح آخرين

.....

ها نحن لا زلنا مع الصديقِ يوسف ذاهبين ١
في قصةٍ أحداثُها ظلت حديثَ العالمين ٢
إخوانُ يوسفَ قرروا أن يأخذوه مُصَمِّمين ٣
قد قرروا أن يأخذوه وأضمَروا الفعلَ المشين ٤

ها نحن أولاء لانزال مع أحداث قصة يوسف الصديق ، تلك القصة التى تداولتها الأجيال قديماً وحديثاً ، مصحوبة بالدهشة والاستغراب ، وكيف لا ، إنها أعجب وأغرب قصة تمت بين بنى الإنسان !!

وبعد . . فإخوة يوسف لم يدخروا جهداً فى مجادلة أبيهم ، ونفى خوفه على ولده يوسف ، وما مصدر هذا الخوف ؟! فالخوف على يوسف من أى كائن ، مرفوض مطلقاً ، ويدللون على هذا بأنهم عشرة رجال عصبة ، يحمون يوسف لا من ذئب واحد فحسب ، بل من غابة مليئة بالذئاب .

بعد الإلحاح الشديد ، والمحاورة الطويلة ، استجاب يعقوب لطلب أولاده ، فسمح ليوسف بالذهاب مع إخوته .

يالله!! لقد استجاب يعقوب لطلب أولاده المصحوب بالرجاء فى صورة إصرار . . لقد استجاب يعقوب،وهو فى الوقت نفسه مملوء شكاً،فمن واقع حديثه معهم، والحوار الذى دار بينه وبينهم ، نستطيع أن نقول : إن الشيخ كان يقرأ ما فى نفوس أولاده .

بيد أن يعقوب كان لابد أن يستجيب ، وما كان له أن يرفض ، وكان حتماً عليه أن يسمح ليوسف بالذهاب مع إخوته ، وذلك لكى يتم ما هو مخبوء فى ضمير الغيب بشأن يوسف ، وفى الوقت نفسه يتم مخطط إخوته الذى رسموه لأجله . . وبهذا تلتقى الحلقتان : حلقة القدر ، وحلقة تدبير البشر . . ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [النمل : ٨٨] .

ولا غرو فعجلة الأقدار ماضية لا تتوقف ، ولا تتأثر بأحزان أناس ، أو أفراح

آخرين ، أو بالقسوة على طفل بحرمانه من والديه ، وعطفهم وحبهم ، أو . . إلخ ، ذلك لأن ظواهر الأقدار غير بواطنها . . فكم من طفل نشأ يتيم الأبوين ، فأصبح من الملوك ، وكم من طفل نشأ رافلاً فى النعمة بين أبويه ، فأصبح يتكفف الناس !!

والله عز وجل يسبب الأسباب ، ليتم ما قدره وأراده بشأن يوسف ، وليصل فى النهاية إلى كشف الغطاء عما كان محجوباً عن عيون وعقول البشر ، من مجد ينتظر يوسف ،كاليد الحانية تأسو جراحه ، وتكفكف دموعه . . تلكم هى بواطن الأقدار ، التى تكون بمثابة نتيجة لمقدمات مؤلمة .

يوسف بين وجوه كأنها وجوه الجلادين

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ... ﴾

الشيخُ وافقَهم ، لِتكمُلَ قصةُ المتآمرين ٥
ذهبوا به ، كانوا لفعل الشر حتما عازمين ٦
قد قرروا إلقاءه في الجُب ليسوا هازلين ٧

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في القصص القرآني : « في هذا الإطار الموجز من النظم ، تعرض أحداث كثيرة من أحداث القصة ، حيث نشهد نجاح الكيد الذى كاده أبناء يعقوب لأخيهم وأبيهم . . فقد جاء الغد ، وها هم أولاء يصحبون يوسف معهم على العزم الذى عزموه ، وهناك حيث بلغوا بماشيتهم المكان الذى يرسلونها فيه للرعى ، خلا بعضهم إلى بعض ، ليروا رأيهم فى يوسف ، وفى التخلص منه . . وأجمعوا أخيرا أمرهم على أن يلقوه فى الجب . . »[1] .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ .

إن يعقوب عليه السلام ، لما أرسله معهم ، أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه ، وسلمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير وتعلم يا بنى شفقتى عليه ، فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ، ثم عجّل بردّه إلى .

قال : وأخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يشيعهم ميلاً ثم رجع ، فلما انقطع بصر أبيهم عنهم ، رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر ، من الغيظ والعسف .

فاستغاث بروبيل وقال: أنت أكبر إخوتى، والخليفة من بعد والدى على، وأقرب الإخوة إلىّ ، فارحمنى وارحم ضعفى ، فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكباً ، فلتنجك منا ، فعلم أن حقدهم عليه من أجل رؤياه .

(١) القصص القرآنى ص ٤١٦ لعبد الكريم الخطيب .

فى وسط هذا الجو المشحون بالعداء والقسوة ، وجد يوسف نفسه غريباً بين وجوه تغيرت ، كأنه لم يرها من قبل ، وجوه يعلوها عبوس وصرامة ، كأنها وجوه جلادين ، وعيون كأنها ألسنة اللهب تحيط به لتحرقه، أو كأنها سهام موجهة إليه تخترق جسده . . وألسنة تنطق بألفاظ غريبة على مسامعه ، تعبر عن حقد أسود يملأ صدورهم . . فلما يئس من عطفهم عليه ، لجأ إلى الله عز وجل ، فكان الله معه يسمع ويرى ، إلا أن قضاء الله لابد نافذ .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ... ﴾ ولم يكن الإخوة ليذهبوا إلا ويوسف معهم وفى صحبتهم ، وهنا يكون لجميع الإخوة العشرة ، إجماع فى الرأى على جعله فى غيابة الجب ، وفيهم الأخ الأكبر ، الذى لم يُبد أية معارضة حينما أوشكت ساعة التنفيذ ! ولعل ذهاب يوسف معهم الذى تحقق ببساطة لم يكونوا يتوقعونها ، وإمكان التخلص منه ، بسبب الذهاب معهم طمعا فى أن يخلو لهم وجه أبيهم ، ويكونوا من بعده قوماً صالحين .

وإن جملة ﴿ وَأَجْمَعُوا ﴾ تظل تدل على أن الإجماع حتى هذه اللحظة ، كان فى الرأى ، ويبقى بعد ذلك التنفيذ ، وقد ذهب البعض إلى أن للأخ العاشر الأكبر ، دوراً فعالاً فى التخفيف ، من سوء معاملة الإخوة ليوسف .

وليس ذلك بمستبعد إن أظهر الأخوة حقيقة شعورهم ليوسف ، قبل جعله فى غيابة الجب . . أما إذا كتم الأخوة رغبتهم حتى أغروا يوسف بالنزول إلى غيابة الجب ، كى يملأ لهم ماء ، وهو ما نرجحه ، فلا مجال لإساءة المعاملة ، أو تدخل الأخ الأكبر للتخفيف منها .

من كتاب ـ تأملات فى سورة يوسف ـ ص ١٦٠ .

بداية رحلة العذاب والأحزان

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

لـكنْ إلـهُ الـعرشِ دومـاً يـنصـر المـستـضـعفـين ٨
أوحـى لـيـوسـف أنـه ناجٍ فـصـبـراً فـى يـقـين ٩
ولسوف يُنصر فى الحياةِ ، وسـوف يعلو الحاقدين ١٠
بل سـوف يخـبرهـم بهذا ، ولـيكـونوا آسـفين ١١

لقد استـقر يوسف فى قعر الجب ، ذلـك المكان الذى اختاره له إخـوته ، بعد أن عدلوا عن فكرة القتل، وتمت الجريمة ،تلك الجريمة التى اهتز لها ضمير الإنسانية ، وكأنى بملائكة السماء كانت تطل من عليائها ،أثناء إلقاء يوسف فى البئر ، فرأت عجباً !! قسوة الإنسان على أخيه الإنسان ، وكأنى بها كانت تود أن يؤذن لها بالفتك بأولئك القساة .

أما بالنسبة لأبناء يعقوب ، فقد تمت الجـريمة ، بل وانتهت . . وأما بالنسبة ليوسف فقد كانت هـذه بداية رحلة عذاب طويلة ، توالـت فيها عليه النكبـات والمصائب ، وقد كانت هذه هى الحلقة الأولى من سلسلة متعددة الحلقات . . وأما بالنسبة ليعقوب ، فقد كانت بداية رحلته مع الأحزان . . الأحزان التى فاقت كل أحزان الآباء على أبنائهم .

لقد وجد يوسف نفسه فى قعر جب مظلم، لا أنيس ولا جليس، وهو فتى صغير لم يسبق له أن فارق أحضان أبيه ،يالله !! ماذا يصنع ؟!! إن قلبه الصغير يوشك أن ينفجر من شدة ما هو فيه، بيد أن الله عز وجل أدركه برحمته ولطفه ، فأوحى إليه ، أن اصبر ولا تخف من كيد أحد ، فأنت مهيأ لأمور عـظام ، أما إخوتك فإنك سوف تعلوهم فى الحياة الدنيا ،وسوف تكون سيدهم ، وسوف يكونون فى مقام الذلة والتصاغر أمامك ، وسوف تكون الأقوى الـذى يستطيع أن ينتـقم منهم . . كل هذا سوف يـكون وغيره ، حينما تخبرهم بما فعلوا بك على سبيل العتاب ، ولن ترد لهم الإساءة بمثلها .

قال القاضى بيضاوى فى تفسيره: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة ، وقيل : كان مراهـقاً ، أوحى إليه فى صغره كما أوحى إلى يحيى وعيسى علـيهما السلام فى صغرهما ، وفى القصـص ، إن إبراهيم حين ألقى فى

النار ، جرد عن ثيابه فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فرفعه إبراهيم إلى إسحاق ، وإسحاق إلى يعقوب ، فجعله فى تميمة علقها يوسف . . فأخرجه جبريل عليه السلام فألبسه إياه . . ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ لتحدثنهم بما فعلوا بل ، وهم لا يشعرون أنك يوسف ، لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم ، وطول العهد المغير للحلى والهيئات ، وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر ، حين دخلوا عليه ممتارين ، فعرفهم وهم له منكرون ، بشره بما يؤول إليه أمره إيناساً له ، وتطييباً لقلبه » .

وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ... ﴾ إلخ يقول تعالى : ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته ، وإنزاله اليسر فى حالة الضر ، إنه أوحى ليوسف فى ذلك الحال الضيق ، تطييباً لقلبه وتثبيتاً له : إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ، ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع » .

قال الصابونى فى صفوة التفاسير : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ .

أى أوحينا إلى يوسف ، لتخبرن إخوتك بفعلهم هذا الذى فعلوه بك ، وهم لا يشعرون فى ذلك الوقت أنك يوسف .

قال الفخر الرازى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ... ﴾ وفائدة هذا الوحى ، تأنيسه وتسكين نفسه ، وإزالة الغم والوحشة عن قلبه ، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة ويصير مستولياً عليهم ، ويصيرون تحت قهره وقدرته » .

أبناء يعقوب ورثوا العداء بعضهم لبعض عن أمهاتهم الضرائر

.....

إخوانُ يـوسفَ إنـهم كانـوا ليوسـفَ حاسـدين ١٢
الحـقدُ أعـمـاهم ، لـقـد صاروا جُفـاةً قـاتلـين ١٣
قد جفّ فـيهم كلُّ عَطْفٍ ، أصبـحوا متحـجرين ١٤
لم يـرحمـوه وكان يـبكيـهم فـكانـوا جاحـدين ١٥
فى الجُب أصـبح لا أنيسَ ولا جـليسَ ولا مـعين ١٦

إن إخوة يوسف قد حسدوه وحقدوا عليه ، لا لذنب جناه ، أو إساءة بدرت منه فى حق أحد منهم . . . فهو صغير ، أصغرهم كلهم سناً ، ومن المعروف أن الصغير يكون دوماً موضع العطف والحب من إخوته الكبار ، غير أن إخوة يوسف بصنيعهم هذا قد خالفوا ما هو متعارف عليه من طبائع البشر .

ويبدو أن حسدهم ليوسف وحقدهم عليه ، ليس منشأه تفضيل أبيهم له عليهم فحسب ، وإنما لهذا الحقد جذور قديمة موروثة . . . !

فيوسف من أم أخرى غير أم إخوته ، ولا يخفى على كل عاقل ماذا يكون بين الضرائر من خلاف وعداء ومهاترات ، ولا غرو فالأبناء فى هذه الحالة ليسوا بعيدين عن حلبة الصراع ، فمن ثم ينشأون متأثرين بأمهاتهم ، هذا مقتنع بأن أمه على صواب ، وذاك مقتنع بأن أمه على صواب أيضاً ، بناء على هذا ، انقلب الأبناء أعداءً : بعضهم لبعض عدو .

وقد أشار إلى هذا المعنى صاحب تفسير المنار فى معرض تجهيل أبناء يعقوب فقال : « ولا غرو فهذا الحكم منهم على أبيهم ، جهل مبين وخطأ كبير ، لعل سببه اتهامهم إياه ، بإفراطه فى حب أمهما ـ أم يوسف وبنيامين ـ من قبل ، فيكون مثاره الأول ، اختلاف الأمهات بتعدد الزوجات ، ولا سيما الإماء منهن ، وهو الذى أضلهم عن غريزة الوالدين ، فى زيادة العطف على صغار الأولاد وضعافهم ، وكانا أصغر أولاده .

إذاً لقد دفعهم الحقد الموروث ، وظاهرة تفضيل أبيهم ليوسف أن يتخلصوا من يوسف ، وبالطريقة التى مرّ ذكرها آنفاً . . . لقد جف العطف من قلوبهم فتحجرت ، فتنكروا لإنسانيتهم وجبلتهم التى جبلهم الله عليها .

يالله !! يوسف الغلام الصغير ، فى الجب وحده ، لكن عناية الله كانت معه ، فحفظه من هلاك محقق ، بأن يموت خوفاً ورعباً ، وحنيناً إلى والديه ، وحزناً على ما هو فيه الآن، بعد الرعاية والحب والعطف، فألهمه ، وأوقع فى نفسه شعوراً قوياً بأنه ناج من هذا ومن غيره مما سوف يصادفه على درب الحياة من عقبات ، تذهل لها العقول ، وتنفطر لهولها القلوب .

قال الفخر الرازى فى (المسألة الثالثة) إذا حملنا قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ على التفسير الأول، أى ـ الوحى والنبوة والرسالة، وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين.

كان هذا أمراً من الله تعالى ليوسف ، فى أن يستر نفسه عن أبيه، وألا يخبره بأحوال نفسه، فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طوال تلك المدة ، مع علمه بوجد أبيه به ، خوفاً من مخالفة أمر الله تعالى، وصبر على تجرع تلك المرارة. فكأن الله سبحانه وتعالى، قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يرسل إليه تلك الغموم الشديدة، والهموم العظيمة، ليكثر رجوعه إلى الله تعالى . . وينقطع تعلق فكره عن الدنيا ، فيصل إلى درجة عالية فى العبودية ، لايمكن الوصول إليها إلا بتحمل المحن الشديدة . والله وأعلم .

أبناء يعقوب يتباكون جزعاً على يوسف

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ... ﴾

عند المساء جميعُهم عادوا إلى الشيخ الحزين ١٧
عادوا إليه بغير يوسفَ ، قد غدوا متحازنين ١٨
قالوا : فعذراً يا أبانا ، لم نكن متوقعين ١٩
فلقد ذهبنا للتسابق ، حيث نلهو لاعبين ٢٠

لقد عاد أبناء يعقوب فى المساء إلى أبيهم ، وقد كان أبوهم ينتظر عودتهم بفارغ الصبر، إن قلبه لا يكاد يكف عن الخفقان خوفاً على يوسف، فهو لأول مرة يتركه يخرج بعيداً عنه . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن ريح الشك يتسرب إلى فكره ، بأن أولاده ربما يكونون ناوين شراً ليوسف، لكنه سرعان ما يرفض هذا الشك الذى يقلقه .

بيد أن هذا الشك كان لا ينفك يعاوده ويلحاح طوال فترة ذاك اليوم الذى حدثت فيه الجريمة ، ويقتحم عليه تفكيره ، حتى صار هو كل تفكيره ، فمن ثم ازداد قلبه انشغالاً وقلقاً على يوسف .

لقد عادوا في المساء ، وهم يبكون متظاهرين بالحزن والهلع علي يوسف ، وكانوا قد هيأوا أنفسهم لإقناع أبيهم ببراءتهم ، وأن الأمر كان قضاءاً وقدراً ، لقد ذهبوا للهو والتسابق والمصارعة وتركوا يوسف عند أمتعتهم ، يلهو كما يشاء بالطريقة التى يهواها ، فغافلهم ذئب ملعون كاسر فافترسه ، ولم يروا الذئب حين افترسه ، إذاً لافترسوه !!!

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه: « أنبياء الله » ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ .

« المشهد هنا ليل خارجى أسود ، يقطعه صوت بكاء عشرة رجال ، والأب يجلس فى بيته، فيدخل عليه أبناؤه أثناء الليل، حيث تخفى ظلمة الليل ظلمة القلوب ، وظلمة الأكذوبة التى تتهيأ للظهور، تساءل يعقوب، لماذا تبكون ؟! هل جرى فى الغنم شىء ؟! قالوا وهم يزدادون بكاءً .

فوجئنا بعد عودتنا من السباق، بأن يوسف قد استقر فى بطن الذئب، لم نجد يوسف».

قال القرطبى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ أى ليلاً ، وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار ، فى الظلمة ، ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العينين ، ولا تعتذر فى النهار من ذنب ، فتتلجلج فى الاعتذار ، فروى أن يعقوب لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟! أجَرى في الغنم شىء ؟! قالوا : لا ، قال : فأين يوسف ؟! قالوا : ذهبنا نستبق ، فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟!

وقال ابن كثير : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف ، بعدما ألقوه فى غيابة الجب ، إنهم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، ويتغممون لأبيهم ، وقالوا معتذرين مما وقع فيما زعموا : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أى نترامى ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ أى ثيابنا وأمتعتنا، « فأكله الذئب ، وهو الذى كان جزع منه ، وحذر عليه » .

« وهكذا جاء الإخوة أباهم فى ظلمة الليل ، لأن فى عدم ظهور ملامحهم على حقيقتها في ذلك الظرف ، بسبب الظلام ، مساعدة لهم أى مساعدة ، ولذا قيل : « لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحياء فى العينين ، ولا تعتذر فى النهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار » .

ونستنتج من تعمد الإخوة المجىء فى الظلام،أن يعقوب عليه السلام ، صحيح الإبصار ، لأنه لو لم يكن كذلك ، لاستطاع الإخوة أن يجيئوا ، فى كل وقت ، ولما كانت هناك حاجة لتعيين الوقت بأنه فى العشاء » .

من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » .

عودة أبناء يعقوب بغير يوسف

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾

وهناك يوسفُ ظلَّ عند متاعنا كالحارسين ٢١
اللهو أنسانا وقد صرنا جميعاً غافلين ٢٢
الذئبُ مزّقه وكان من الذئابِ الكاسرين ٢٣
تالله إنك لم تكنْ من قولنا في الموقنين ٢٤

يالله !! إنهم ـ أى أبناء يعقوب ـ يعتذرون ويتظاهرون بالحزن والجزع على يوسف، والواقع أن قلوبهم ترقص طرباً ، لكونهم استطاعوا خداع أبيهم ، فأعطاهم يوسف ، فنفذوا خطتهم الدنيئة الإجرامية ، ولو أن أباهم رفض السماح ليوسف بالذهاب معهم ، لظلوا يحترقون بحقدهم الأسود ، ولكن ما كان ليعقوب أن يمنع يوسف . . فالأمر قد أبرم فى السماء ، ولسوف يتم ما قضاه الله .

لقد قالوا والبكاء يغلب على قولهم : لقد تركنا يوسف عند متاعنا ، لكونه لا يستطيع مشاركتنا فى اللهو واللعب ، ذلك لضعف بنيته وصغر سنه . . وما كنا نظن أن الذئاب قد تقترب من مكان لهونا ومرعى أغنامنا ، لأن الذئاب وكل الوحوش ، تبتعد عن أى مكان يتواجد فيه بنو الإنسان . . يالله !! إنهم بهذا القول يقدمون الدليل على كذبهم ، وبطلان دعواهم . . لكنهم قالوا : أكله الذئب .

« قال القرطبى فى تفسيره عن السدى وابن حبان : إنه لما قالوا : أكله الذئب ، خرّ مغشياً عليه ، فأفاضوا عليه الماء ، فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب ، فلم يحس بنفس ، ولم يتحرك له عرق ، فقال يهوذا : ويل لنا من ديان يوم الدين ! ضيعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر ، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل ، فقال : يا روبيل ! ألم أئتمنك على ولدى ؟! ألم أعهد إليك عهداً ؟! فقال : يا أبت كف عنى بكاءك أخبرك ، فكف يعقوب بكاءه فقال : يا أبت ! ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ .

لقد فوجئنا بعد عودتنا من التسابق واللهو ، بأن يوسف ليس موجوداً ، لقد أكله

الذئب واستقر فى بطنه . . إنك لن تصدق قولنا،ولو كنا صادقين . . إننا نحكى لك ، وكلنا أسف وخجل منك لكوننا لم نستطع حماية يوسف من الذئب .

« قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ تلطف عظيم فى تقرير ما يجادولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ـ والحالة هذه ـ لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب ، فأنت معذور فى تكذيبك لنا ، لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا » .

قال الصابونى فى صفوة التفاسير : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أى لستَ بمصدق لنا فى هذه المقالة ، ولو كنا فى الواقع صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا ؟! وهذا القول منهم ، يدل على الارتياب ، وكما قيل : يكاد المريب أن يقول خذونى » .

« هناك نوع من التشابه بين قول الإخوة: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ وقولهم من قبل : « مالك لا تأمنا على يوسف » ومصدر ذلك التشابه ، أن نفسية الإخوة فى الموضعين متشابهة ، إذا لم يكونوا صادقين فى المناسبتين . إنهم حينما يقولون : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ إنما يعبرون بإخلاص عن حقيقة الموقف الذى يتوقعون يعقوب عليه السلام، أى يتخذه منهم ، بناء على ما يعرفون من حقيقة عدم صدقهم ، على الرغم من محاولة إضفاء جو الصدق على فعلهم وقولهم » .

من كتاب « تأملات فى سورة يوسف » .

إخوة يوسف يقدمون لأبيهم البرهان على صدقهم

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾

فلقد تحقق ما ظننتَ بحكمة الشيخ الفطين ٢٥
يا حسرةً قد ضاعَ يوسفُ في عِداد الراحلين ٢٦
وقميصُه قد لوثوه دماً كذوباً عامدين ٢٧
قالوا : فهاك قميصُه بدمائه كي تستبين ٢٨

ها هم أولاء أبناء يعقوب يواصلون روايتهم الكاذبة فيقولون له : ولقد صدقت نبوءتك يا أبانا حين تخوفت على يوسف من الذئب ، وحذرتنا منه ، وقد كنا نستبعد هذا حين ذكرته لنا ، فإذا الذى تخوفته قد وقع .

كانوا قد ذبحوا شاة ، أو غزالاً ، أو أرنب ، ولطخوا قميص يوسف بدمها ، ليقدموا الدليل على صدق دعواهم ، غير أن القميص كان سليماً لم يخدش نسوا أن يمزقوه كدليل على افتراس الذئب ليوسف، فليس من المعقول ،أن يفترس الذئب إنساناً ، دون أن يمزق قميصه !!!

إنهم يقدمون الدليل الذى يظنونه يؤكد دعواهم ، بيد أنهم فى الوقت نفسه قدموا ما يبطل قولهم ، ويؤكد كذبهم .

بعد أن تباكوا أمام أبيهم، ألقى أحدهم القميص أمام أبيه ثم قال: إننا يا أبانا لا نكذب، لقد أكل الذئب يوسف ، وهذا قميصه قد وجدناه ملطخاً بدمه بعد أن افترسه الذئب .

« قال القرطبى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ ، كان دم سخلة أو جدى ذبحوه ، وقال قتادة : كان دم ظبية ، أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه ، قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم ، قرن الله بهذه العلامة ، علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التمزيق ، من أثر أنياب الذئب ، إذا لا يمكن افتراس الذئب ليوسف ، وهو لابس القميص ، ويسلم القميص من التمزيق » .

« وقال ابن كثير : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ . . أى مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة ، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب . . وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يمزقوه ، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب » .

« وقال صاحب تفسير المنار : وجاءوا على قميصه بدم كذب . . المراد من هذه الجملة الفذة فى بلاغتها ، أنهم جاءوا بقميصه ملطخاً ظاهره بدم غير دم يوسف ، يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم ، فكان دليلاً على كذبهم ، فنكر الدم ووصفه باسم الكذب ، مبالغة فى ظهور كذبهم فى دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه ، وقال ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِ ﴾ ،ليصور للقارئ والسامع ، أنه موضوع على ظاهره وضعاً متكلفاً ، ولو كان من أثر افتراس الذئب ، لكان القميص ممزقاً ، والدم متغلغلاً فى كل قطعة منه » .

قال الأستاذ الشيخ محمد على الصابونى فى « صفوة التفاسير » : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أى وجاءوا على ثوبه بدم كاذب ، وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، قال ابن عباس : ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص ، فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتم ، لو أكله الذئب لخرق القميص .

يعقوب يتبين كذب أولاده

.....

أخذ القميص الشيخُ ينظُرُه بعين الفاهمين ٢٩
عرفَ الحقيقَة أنهم ليسوا جميعاً صادقين ٣٠
من ثَم قال لهم ، وكان بلهجةِ المتهكمين ٣١
الذئبُ آكلُ يوسفٍ ، ما كان فى المتوحشين ٣٢

كما أسفلنا ، فإن أبناء يعقوب قدموا له قميصاً ملطخاً بالدم ، زاعمين أنه قميص يوسف . ظانين أن هذا هو الدليل والبرهان الذى يؤكد قصتهم المزعومة .

أخذ يعقوب القميص وأخذ يقلبه ، فوجده سليماً لم يخدش ، غير أنه فى الوقت نفسه ملطخ بالدم ، فقال يعقوب متهكما : يبدو أن الذئب الذى افترس يوسف وأكله ، من نوع من الذئاب المهذبة ، وليس من الذئاب المتوحشة !!! فلو كان متوحشاً ، ما ترك القميص دون أن يمزقه ، كما مزق جسد يوسف كما زعمتم .

« قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله » : وألقى أحد الأبناء ما يتصور أنه دليل البراءة . . . ألقى قيمص يوسف أمام أبيه الذى كان يجلس ، وأمسك يعقوب بقميص ابنه ، ورفعه وتأمله فى ضوء المشعل الموجود فى الغرفة ، راح يقلبه في يده ، فوجده سليماً بغير خدش واحد . . . أى ذئب هذا الذى أكل يوسف ؟! هل أكله من داخل القميص بغير أن يمزق قميصه ؟!

لو كان يوسف يرتدى قميصه ، والذئب يأكله لتمزق القميص ، ولو كان قد خلع قميصه ليلعب مع إخوته ، فكيف يلطخ القميص بالدم ، ولم يكن يرتديه ، ساعتها أدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، ومن الأكذوبة الواضحة ، أن يوسف لم يأكله الذئب . . . لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك أكذوبتهم ، ولو كانوا أهدأ أعصاباً ، لما التقطوا حكاية الذئب من فم أبيهم ، فى حواره معهم ليلة الأمس ، ليقوموا الليلة بتمثيلها أمامه . . . أدرك الأب أنهم يكذبون » .

« قال القرطبى : روى أن يعقوب لما قالوا لن : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ قال لهم : ألم يترك

الذئب له عضواً فتأتونى به أستأنس به ؟! ألـم يترك له ثوباً أشم فيه رائحته ؟! قالوا : بلى ! هذا قميصه ملطوخ بدمه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه ، فأروه فشمه وقبله ، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقاً ولا تمزيقاً ، فقال : والله الذى لا إله إلا هو ، ما رأيت كاليوم ذئباً أحكم منه ، أكل ابنى واختلسه من قميصه ، ولم يمزقه عليه ، وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذئب لم يأكله ، فأعرض عنهم كالمغضب باكياً حزيناً . . » .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » .

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ . وإنه هروباً من الجريمة ، وبحثاً عن كل وجه تبرق منه بارقة سراب للنجاة، تراهم يستكثرون من وسائل التضليل والتعمية ، حتى إنهم ليحملون معهم إلى أبيهم، قميص يوسف ملطخاً بالدم الذى نزف منه والذئب يفترسه .

أليس هذا دليلاً مادياً على أنهم صادقون فيما أخبروا أباهم به من أمر الذئب ويوسف ؟!

ولكن هذا التدبير قد جاء على غير ما قدروا ، فكان شهادة قائمة عليهم بأنهم غير صادقين فيما جاءوا به من خبر يوسف فالدم الذى جاءوا به على قميص يوسف . دليل من الأدلة القوية على أن القصة ملفقة . . فلماذا يحملهم على حمل هذا الدم إلى أبيهم ؟! أليسوا هم أولياء الدم وأهله ؟! وهل يجد ولى الدم قدرة من نفسه على حمل إصبع أو عين أو رأس من ابنه أو أخيه المقتول ، ثم يطوف بها ، ويقلبها بين يديه ، ويعرضها على الأنظار ؟!

ذلك ما لا يكون لو أن الذئب كان حقاً هو الذى عدا على يوسف وافترسه !

ويقرر علم الإجرام، أن المجرم مهما كان ذكياً حذراً، لا بد من أن يترك أثرا يدل عليه، أو أن يقع فى تدبيره خلل ما يكون مفتاحاً للكشف عنه . القصص القرآنى ص ٤١٨ .

يعقوب لم يصدق أولاده

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

تـرك القـمـيـص بـغيـر تمزيـق يـخاف الـلائمـين ٣٣
الـذئب خـيـر من وحـوش فـى ثـياب الآدمـين ٣٤
أنـتم تـواطـأتم علـى فـعـلِ الجريمـةِ مـجمِعـين ٣٥
تـالـلـه قـد صـرتم بهـذا فـى عِداد الـغـادريـن ٣٦
ولسـوف أصبـرُ للـمصابِ ، وبـالإله سـأستـعين ٣٧

إن يعقوب لم تنطل عليه أكذوبـة أولاده . . . وقد كان أكبر دليل فضحهم ، وأكد كذبهم، هو القميص الذى ظنوه يؤكد ما زعموا. لذلك ، تهكم يعقوب بكلمات والحزن يمزق نياط قـلبه ، وقد غلبه الـبكاء ثم عاد يواصـل تهكمه فقال : إن الـذئب حين أكل يوسف ، حرص على أن يترك القميص سليماً ، لكى ينتفع به إخوته من بعده ، فيلبسه أحدهم !!! هـذا من ناحية ، ومن نـاحية أخرى ، فهـو يخشى من اللـوم إن هو مزق القميص !!! فليس من طبيعة الوحوش تمزيق القمصان ، ولكن تمزيق الأجساد !!!

ثم حاول يعقوب أن يغير من أسلوب التهكم والسخرية، إلى أسلوب التأنيب والتقريع فقال: إن الذئب بصفته وحشاً أعجمياً ، حينما يفترس إنسانا فيأكله ، لم يكن قد خالف طبيعته التى هى أخص خصائصه ، وقـد جبله الله على ذلك . . . إنه ذو ظفر وناب ، وطبيعته التى جبله الله عليها ، هى أكل اللحوم . . . هو فى هذا لم يتنكر لطبيعته .

إذن فالذئب فـى هذه الحالة ، خير من وحـوش البشر . . . نعم خـير من وحوش يلبسون ثيـاب البشر . . . ذلك لأن الوحش الأعجمى لا يزعم أنـه أليف أو أنيس ، لم يكذب على نفسه ولا على الآخرين ، من شاء أن يقترب منه ، أو يتعامل معه ، فليكن على حذر منه ، وليعلم أنه حيوان مفترس .

أما وحوش البشر، فإنهم يتظاهرون بغير ما يبطون ، يعلنون الحب والود والمثالية ، بينمـا هم ينطوون على حـقد أسود ، يزعم الواحد مـنهم أنه حبيب ، وهـو فى الواقع مملوء عداء ، ثم واجههم بالحقيقة والصراحة فقال لهم : أنتم تواطأتم على التخلص من

يوسف، كل الأدلة والقرائن تؤكد أن أيديكم قد تلوثت بالجريمة. . لقد غدرتم بيوسف ، وتلك لعمر الله شيمة الغادرين .

ثم قال : من حيرته : ماذا أصنع ؟! لاحيلة لى فى ما حدث ، إذن فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنى صابر لقضاء الله ، وإنى مستعين به . . وهذا معنى قوله لأولاده : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه .

سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : فصبر جميل، فقال: «صبر لا شكوى فيه ».

جبريل مع يوسف فى الجب

.....

في الجب يوسفُ صار يبكى ، لا أنيسَ ولا معين ٣٨
لـكـنّ ربَّ الـعـرشِ أيـده بـــجـبـريـلَ الأمـين ٣٩
فوراً أتاه وقـال : لا تيأسْ ، وكن فى الصـابرين ٤٠
اصـبر فـإنـك عـند ربـك فـى عـداد المرسـلـين ٤١
ولسوف تـبلغ كل مجـد ، في صفوف الخـالدين ٤٢

إن إخوة يوسف ملئوا عداءً وحقداً عليه، فقست قلوبهم حتى بلغت القسوة بهم حد ارتكاب الجريمـة . . نعم لقد كان أول شيء فكـروا فيه للتخلص مـن يوسف ، أن قال قائلهـم: اقتلوا يوسف. ولكـى يتم ما قضاه الله بـشأن يوسف ، أشار عليـهم أخوهم الأكبر بإلقائه فـى الجب ، فوافقوه ، وفعلاً ألقوه فى الجب ،ويالـيتـهم تركوه بملابسه ، بل نزعوا عنه قميـصه ، وتركوه عريانا فى الجب ، إن لم تقتله الـهوام ، قتله البرد فى قعر البئر المملوء بالماء .

« قال القرطبـى : لما نزعوا عن يوسف قمـيصه وأدلوه فى البئر قـال : يا إخوتاه ! ردوا على قميصى أتوارى به فى هذا الجب ، فإن مت كان كفنى ، وإن عشت أوارى به عورتى ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشـر كوكباً فلتؤنسك وتكسك ، فأدلوه فى البئـر ، حتى إذا بلغ نصفـها ، ألقوه إرادة أن يسقـط فيموت ، فكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها . . وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدى .

قال جبريل : فأسرعـت وهبطت حتى عارضته بين الرمى والوقـوع ، فأقعدته على الصخرة قال : يا إخوتـاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيـتى قالوا : وما هى؟! قال: إذا اجتمعتم كـلكم وآنس بعضكم بعضاً ، فاذكروا وحشـتى ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى، وإذا شربتم فـاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غريباً ، فاذكـروا غربتى ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شبابى .

فقال له جبريل : يا يوسف ! كف عن هذا واشـتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله

بمكان ، ثم علمه فقال : قل: اللهم يا مؤنس كل غريب ، ويا صاحب كل وحيد ، ويا ملجأ كل خائف ، ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى ، ويا منتهى كل شكوى ، ويا حاضر كل ملإ ، يا حي يا قيوم ! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي ، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً إنك على كل شيء قدير » .

إيه يا يوسف . . إن عناية الله ترعاك ، فاصبر على هذا البلاء ، فالمجد ينتظرك ، والعز سوف يكون في ركابك ، وسوف يخلد ذكرك في الدنيا بالرسالة ، وفي الآخرة يبيض الله وجهك .

يوسف فى الجب يبكى

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ... ﴾

جاء القوافل عند ذاك البئر صاروا نازلين ٤٣
قد أرسلوا وُرّادَهم للبئر كانوا ظامئين ٤٤
فى الجب أدْلَوا دلوهم للماء كانوا طالبين ٤٥
الدلْو أمْسَكَه الغلامُ ، وقال يغلبُه الأنين ٤٦
فلتخرجونى من ظلام الجب ، كونوا محسنين ٤٧

« قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » : وتطوى الأحداث على عجل ، وينتقل المشهد فى سرعة خاطفة إلى حيث يوسف فى الجب ، يعانى من وحشة وخوف وجوع! وتتجه أبصار الذين يتابعون أحداث هذه القصة ، إلى هذا الجب ، أو القبر الذى ضُم على هذا الصبى البرىء ، وتتلفت القلوب نحوه ، وتطوف الخيالات حوله ، وإذا سيارة ـ جماعة من المسافرين ـ تلوح من بعيد ، حتى إذا دنت من الجب ، حطت رحالها ، وبعثت بمن يستقى لها من الجب .

وهكذا جاءت السيارة كما قدر أبناء يعقوب ، لأن الجب كان على طريق تجارى ، يصل بين الشام ومصر ، ويكثر على هذا الطريق مرور القوافل المسافرة بين الشام ومصر . . وحطت القافلة رحالها ـ بعد لأى ـ على مقربة من الجب ، ثم جعلت تعالج فى تثاقل أمتعتها ، وتسوى رحالها ، وتهيئ لها منزلاً آمناً تجد فيه الراحة من عناء الرحلة .

يالله !! إن رجال القافلة من شدة التعب ، يفعلون كل شىء على مهل ، لقد أعياهم السفر الطويل ، إنهم يسوون رحالهم وأمتعتهم بتؤدة ، بينما على خطوات منهم ، غلام فى قعر الجب يعانى سكرات الموت ، إنهم غافلون عنه ، إذ لا علم لهم به .

وفى هذا المعنى يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وهنا يبلغ المشهد حداً بالغاً من التأزم ، تضطرب معه القلوب ، وتبهر الأنفاس ، وتذهل النفوس عن الحاضر الذى تعيش فيه ، لتقف وراء هذه القافلة ، تستعرضها ، وتدفع بها فى قوة لتدرك هذا الذى احتواه الجب ، وأطبق عليه » .

وأرسل القوم واردهم ليجيئهم بالماء ، فقد بلغ العطش بهم حدا لا يستطيعون الصبر عليه أكثر من هذا، وجاء الوارد فأدلى دلوه فى البئر ليمتلئ بالماء، ثم يرفعه ليملأ ما معه من أوعية أحضرها لنقل الماء، ولنترك الوارد يدلى دلوه فى الجب، هذا من ناحية . . . ومن ناحية أخرى ننظر إلى يوسف كيف حاله حين رأى الدلو ينزل عليه فى البئر . . . إنه الغوث ، فوراً بادر يوسف بكل ما تبقى لديه من قوة ، فأمسك الدلو ، وقد غلب عليه الضعف من شدة البكاء والجوع فى الجب ثلاثة أيام ، فنادى على صاحب الدلو ، بصوته الخفيض فقال : أخرجونى من هذا الجب ، ولكم عند الله الأجر والثواب ، وسوف تكونون عند الله من المحسنين .

قال ابن عباس : جاءت سيارة أى قوم ، يسيرون من مدين إلى مصر ، فأخطأوا الطريق، فانطلقوا يهيمون على غير طريق ، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام ، وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران ، لم يكن إلا للرعاة . الفخر الرازى .

يوسف ينجو من الجب

﴿ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قد أخرجوه ، وقد غدَوا من شأنه متعجبين ٤٨
فوراً تنادوا بالبشائرِ فى القوافلِ معلنين ٤٩
جاء الجميعُ لينظروه ، وقد غدوا متسائلين ٥٠
من أنتَ ؟! قال: فلست أدرى لا تكونوا مكثرين ٥١

يوسف ينادى صاحب الدلو، بيد أن صاحب الدلو لم يسمع صوت يوسف الخفيض الهزيل، وهو يتوسل إليه فيقول : أخرجونى من ظلام هذا الجب . . فانتشل الوارد دلوه يعتقد أنه قد امتلأ ماء ، ولكن يوسف ما كان ليترك الدلو يرتفع إلى أعلى ، دون أن يتعلق به ، إنه الغوث والأمل بعد اليأس من النجاة . . إن رحمة الله جاءته ممثلة فى هذا الدلو . . فتعلق به ، وصار يستنشق الهواء وهو صاعد إلى أعلى مع صعود الدلو .

حتى إذا ما وصل إلى حافة البئر ، رأى الوارد شيئاً هاله وأفزعه ، غير أنه ما لبث أن تحقق مما رآه ، يالله !! ما هذا ؟! إنه غلام وسيم ، حسن الطلعة ، ميمون النقيبة ، فنادى بأعلى صوته على القوم قائلاً : أبشروا ، هذا غلام وجدته فى البئر ، يبدو أنه سقط فى الجب وهو يلعب عن غفلة ، أو أسقط فيه لأمر ما .

وهرع القوم ـ برغم ما بهم من إعياء ـ متجهين نحو صوت الوارد ، فلما وصلوا البئر ، رأوا أمامهم غلاماً لا تمل العين من النظر إليه ، لشدة حسنه ، وجمال طلعته ، لقد أعطاه الله حسنا فاق كل حسن .

صار القوم يتساءلون فيما بينهم . . ما شأن هذا الغلام ؟! ثم سألوه . . من أنت وما شأنك ؟! ما سبب وجودك فى هذا البئر ؟! فصغر سنك لا يوحى بأنك أتيت من الأعمال ما يكون هذا جزاءً عليها .

فكان جوابه على تساؤلاتهم، لست أدرى ، أنا لا أستطيع الإجابة على ما تسألون ، لأننى متعب ، مجهد ، جائع ، فأرجو أن تعفونى الآن من الإجابة .

كان كلامه واضحاً متزناً ، برغم ضعفه وهزاله ، وإرهاقه الشديد . . فلم يشغلوا

أنفسهم بحقيقة أمره ، وقال قائلهم : على كل حال ، إنه غلام وليس شيئاً آخر ، إنه رزق ساقه الله إلينا ، سوف نبيعه فى سوق الرقيق ، ولسوف يكون ثمنة مرضياً . . . فلنحرص عليه من أن تراه العيون . . إنه مغنم ما فى ذلك من شك .

وفعلاً ، لقد أخفوه عن الناس ، لكى لا يدعيه أحد من أهل ذاك المكان ، لأجل أن يكون بضاعة لهم ، تعود عليهم بالربح الوفير ، فذلك معنى « وأسروه بضاعة » .

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ .

الضمير فى ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ إلى من يعود ؟ فيه قولان :

الأول : أنه عائد إلى الوارد وأصحابه، أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه فى الجب، وذلك لأنهم قالوا: إن قلنا للسيارة التقطناه، شاركونا فيه ، وإن قلنا اشتريناه ، سألونا الشركة ، فالأصوب أن نقول : إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا ، على أن نبيعه لهم بمصر .

الثانى : نقل عن ابن عباس ، أنه تعالى قال : ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ يعنى : إخوة يوسف أسروا شأنه ، والمعنى : أنهم أخفوا كونه أخاً لهم ، بل قالوا : إنه عبدٌ لنا أبق منا ، وتابعهم على ذلك يوسف ، لأنهم توعدوه بالقتل ، بلسان العبرانية .

والأول أولى لأن قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ يدل على أن المراد أسروه حال ما حكموا بأنه بضاعة ، وذلك إنما يليق بالوارد ، لا بإخوة يوسف .

إخوة يوسف يبيعونه لتجار القافلة

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

إخوانه كانوا على بُعد جميعاً راصدين ٥٢
جاءوا إلى الوُراد قالوا : إنّه عبد مهين ٥٣
قالوا : فإنا نشتريه ، إذا أردتم بائعين ٥٤
باعوه بيعَ العبدِ ، قد كانوا جميعاً زاهدين ٥٥

بينما كان القوم ـ الذين اخرجوا يوسف من الجب ـ يحيطون بيوسف، وهم يتساءلون عن أمره، ويتعجبون من حسنه، كان إخوته غير بعيدين، يراقبون ما حدث . . فجاءوا إلى رجال القافلة عند البئر ، فقالوا : يا قوم ! هذا عبدٌ لنا قد أساء ، فعاقبناه بوضعه في هذا الجب ، فإن كان لكم رغبة في شرائه ، فإنا نبيعه لكم ، ولن نغليه عليكم .

قال القرطبي : ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ قال ابن عباس : أسرّه إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب، وذلك أنهم جاءوا فقالوا: بئس ما صنعتم ! هذا عبدٌ لنا أبق ، ولقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تقر لنا بالعبودية ، فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك فقال : أنا أقر لكم بالعبودية ، فأقر لهم ، فباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم ، أن اعترف لأخوتك بالعبودية ، فإني أخشى إن لم تفعل قتلوك . فلعل الله أن يجعل لك مخرجاً، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه ، مخافة أن يقتله إخوته . فقال مالك ـ كبير رجال القافلة لإخوة يوسف ـ والله ما هذا سمة العبيد ! قالوا : هو تربى في حجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأدب بآدابنا ، فقال : ما تقول يا غلام ؟! قال: صدقوا ، تربيت في حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم، فقال مالك : إن بعتموه مني ، اشتريته منكم، فباعوه منه فذلك قوله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ . أي باعوه بثمن بخس ، والبخس هو الناقص المعيب .

قال ابن كثير : وباعه إخوته بثمن قليل، قال مجاهد وعكرمة : والبخس : هو النقص، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [الجن : ١٣]، أي اعتاض عنه إخوته، بثمن دون قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي ليس لهم رغبة فيه ، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا » . قال ابن عباس: « كونه بخساً ، يريد حراماً لأن ثمن الحر حرام ، وقال : كل بخس في كتاب الله نقصان ، إلا هذا فإنه حرام ، قال الواحدي : سمّوا الحرام بخساً لأنه ناقص البركة ، وقال قتادة : بخس ، ظلم ، والظلم نقصان ، يقال: ظلمه أي نقصه، وقال عكرمة والشعبي : قليل ، وقيل : ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ، وقيل : كانت الدراهم ، زيوفاً ناقصة العيار » الفخر الرازي .